الخط العربي

يتألق على أبراج الكنائس في إسبانيا

> مدريد– د. كاظم شمهود طاهر

قد يستغرب الزائر والسائح عند تعرّفه على الأماكن الأثرية في إسبانيا أن يلاحظ وجود خطوط عربية وزخارف إسلامية لا زالت تزين الكنائس والقصور المسيحية خاصة الأبراج. و نجد هذه الظاهرة منتشرة اليوم في أغلب العمارات القديمة. ولكن الأغرب من ذلك هو وجود "لاإله إلا الله محمد رسول الله" مكتوبة على أحد أبراج الكنائس. إذن تعالوا معي نحث الخطى في رحلة سياحية ممتعة لزيارة هذه الأماكن الأثرية الجميلة ولنرى عملياً الكتابات العربية ولنحدد أماكنها وأسمائها.

سان رومان San Roman

تاوسته Tauste

لمعروف أن المعماريين المسلمين بقوا سادة العمارة والفن في إسبانيا لقرون طويلة، وكانوا يشرفون على تصميم وبناء الكنائس والقصور والقلاع وغيرها، ولهذا كانوا مقربين من الملوك ورجال الدين. وذكر المؤرخون أسماء الكثير من المعماريين المسلمين المشهورين يومذاك، منهم محمد رامي وكان من أبرز معماري منطقة أراغون في القرن الرابع عشر، وكان صديقا للقس بابا لونا. ومن أعماله الكاتدرائية الكبيرة سيو في سرقسطة وبلاط لونا في مدينة داروك. وقد وجد اليوم إسمه محفورا على الحجر في كنيسة المعراج في مدينة ثيربيرا.

وفي مدينة تاوستي القريبة من سرقسطة توجد كنيسة قديمة تدعى سانتا مارية تعود إلى القرن الثالث عشر لها برج من صناعة المدجنين وهو مبني من الآجر الأحمر. ويشاهد في أعلاه شريط زخرفي منفذ بمادة الآجر يتكون من حروف عربية منفذة بالخط الكوفي المعماري فظهر بشكل بارز ومتقاطع ومتراكب. وقد ذكر المؤرخون الإسبان، منهم رامريز مارتينس وأسون فيلالبا، بأن هناك جملة عربية على البرج تمثل أحد المعتقدات الإسلامية ولكنها صعبة القراءة نتيجة لتراكب الخطوط بعضها فوق بعض. وقد ذكر لي أحد المفكرين المسلمين وهو من أصل إسباني بأن هذه الكتابة هي (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وعند التدقيق والتبحر في الكتابة نجد إن هناك بعض الأحرف ممكن قرائتها مثل (لاإله إلا الله) وبالتالي فان الكتابة خاضعة للتأويل، فيمكن أن تكون ذلك ويمكن أن تكون (لا غالب إلا الله) وهو شعار بني الأحمر الذي انتشر في الأندلس.

وفي مدينة رومانوس في منطقة أراغون توجد كنيسة سان بدرو التي لها برج جميل مزخرف من طراز المدجنين عليه شريط زخرفي يشبه إلى حد ما الكتابة العربية التي وجدت في كنيسة تاوسته. أما في مدينة مونتالبان التابعة إلى محافظة طرويل فتوجد فيها كنيسة سانتياغو دي مايور التي يشاهد على جدرانها زخارف معمولة من مادة الآجر والسيراميك (الخزف) ومن ضمنها كتابة توحي

باسم الجلالة، وهي منفذة بالخط الكوفي العمودي المعماري، ويلاحظ فيه التماثل بمعنى يمكن قراءته من جميع الجهات. وتتكرر هذه الكتابات في الكنائس القديمة لمدن توبيد، توريلبا دي رباط، ناباريته دي ريو، وبيشيت وغيرها. كما توجد كتابات عربية في داخل كاتدرائية سيو في سرقسطة، وفي كاتدرائية سانتا مارية في مدينة طرويل، وفي بلاط دونثيل في مدينة سيغوينثة (أو شيغونة كما يسميها المؤرخون العرب) التابعة إلى محافظة وادي الحجارة. ويبدو أن هذا البلاط كان يعود إلى أحد الأمراء العرب. وقد شاهدت فيه زخارف إسلامية مع جملة عربية منفذة بالخط الكوفي المغربي وهي (الملك لله الشكر لله) محفورة على الخشب، وتحيط هذه الكتابة بصالة القصر.

وعند زيارتي لهذه المدينة ودخولي كاتدرائيتها إلتقيت بأحد المشرفين عليها ودارت بيننا دردشة عن التراث الإسلامي فسألني عن رمز زخرفي إسلامي موجود داخل الكاتدرائية وإنه قد سأل بعض الباحثين عن التراث عنه فلم يجد له حلاً، ولكن بعد التدقيق والتبحر فيها والمقارنة، إستطعت ان أقرأه وهو إسم الجلالة (الله) محفور ومنفذ بمادة الجص، وقد عمل بالخط النسخي المغربي المورق بمعنى أن حروفه تنتهي بزخارف نباتية، وقد نجح الفنان المسلم في إخفاء هذه الكلمة بين الزخارف قرونا عديدة دون أن يلتفت إليها أحد.

ونفس هذه الكلمة (الله)، والزخرفة، أي نفس هذا القالب، وجدته في متحف المدينة والذي يضم عدداً كبيراً من الآثار الإسلامية، كما وجدتها أيضا في بلاط دونثيل. علماً أن المدينة قد حل فيها العرب وعمروها وبقت تحت سيطرتهم أكثر من أربعة قرون ثم سقطت بيد النصارى سنة 1124م، وقد اندهشت لجمالها وروعة آثارها وحركة الناس فيها وخاصة السياحة. ومن آثارها هي القلعة العربية القديمة والتي حولت اليوم إلى فندق سياحي بعد الترميم والتطوير حيث يشاهد فيها مطاعم ومقاهي ومكتب إعلامي. ثم هناك الكاتدرائية الكبيرة والتي تعتبر عمارتها مزيج من الطرز كالغوطي والروماني

تورتوليس Tortoles

تاوسته Tauste

والمدجني، ويعتقد أنها كانت أصلا مسجداً ثم حولت إلى كنيسة وبطراز آخر.

أما في مدينة طليطلة فإن الكتابات العربية نجدها منتشرة في كثير من الكنائس، ومنها كنيسة سان رومان وبرجها المدجني الجميل، حيث نشاهد في داخل المعبد عمارة إسلامية كاملة تتمثل بأقواس حدوة الحصان وأشرطة من الزخارف الجميلة، منها الكتابات العربية مثل (لاإله إلا الله) والتي تتكرر محيطة بقاعة المعبد، بالإضافة إلى الرسوم المسيحية الأخرى وهذة إشارات إلى أن الكنيسة كانت مسجداً. كما توجد كتابات عربية في كنيسة ترانسيتو حيث يذكر بأن الذي قام ببناء هذا المعبد هو المعماري المسلم أمير عبلي أو أبو علي.

إن ظاهرة وجود الكتابات والزخارف والطراز الإسلامي في المعابد والقصورالمسيحية هي ظاهرة فرضتها الحضارة الإسلامية يومذاك حيث كانت متفوقة على أوربا في كل شيء. كما يمكن تفسير ذلك بما يلي :

أولا- إن غالبية الكنائس القديمة كانت أصلا مساجد حيث شيدت وزينت وزخرفت حسب الطراز الإسلامي، ولما سقطت المدن الإسلامية بيد النصارى حولت هذه المساجد إلى كنائس وأظيف إليها الطراز المسيحي، ولكن بعض هذه الكنائس احتفظت ببعض الزخارف الإسلامية القديمة إلى يومنا هذا مثل كنيسة بويتراغو في مدريد ومسجد باب المردوم في طليطلة.

ثانيا _ إن المعماريين الذين يشرفون على بناء وتصميم العمارات الدينية والمدنية غالبيتهم كانوا من المسلمين أو الموريسكيين الذين بقوا يخفون إسلامهم رغم تنصرهم، وبعض هؤلاء العرفاء كانوا يمزجون في عملهم أسلوبين في الزخرفة هما الطراز الإسلامي والطراز الغوطي المسيحي وهو ما يسميه المؤرخون اليوم، بالمدجني، وكانوا يضعون بين هذه الزخارف بعض الشعارات والمعتقدات الإسلامية وبالخط العربي دون علم رجال الدين أو السلطات، وكانت معظم هذه الزخارف والكتابات معقدة وصعبة القراءة والفهم وتخضع لعدة تأويلات، وهي طريقة ذكية للهروب من العقاب في حالة إكتشافها. وبالتالي عاشت هذه الكتابات قرونا عديدة ولا زالت تزين معظم المعابد الدينية والعمارات المدنية في إسبانيا وخاصة أبراج الكنائس. ■